مقـاومة أحمــد بـاي:

اشترك أحمد باي في معركة سيدي فرج ضد الجيش الفرنسي ولكن بعد الهزيمة النكراء التي مُنِيَ بها الجيش الجزائري، عاد إلى قسنطينة وفي طريقه وصلته أخبار حول محاولة انقلاب ضده، لكنه تمكن من استعادة منصبه بمجرد وصوله بدعم من سكان قسنطينة، وأعلن صراحة استعداده لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وبدأ بتنظيم أموره الإدارية، وألّف مجلس شورى وكوّن مجلسا عسكريا، ووضع الخطط لمواجهة المستعمر رغم الإغراءات الكثيرة التي تلقاها من طرف الفرنسيين في الوقت الذي كان فيه كثير من موظفي الدولة العثمانية يتعاون مع الجيش الفرنسي على أساس أنّه أقوى ضمان لبقائهم في مناصبهم. فحسب ما جاء في مذكرات أحمد باي أن دي بورمون عرض عليه الصلح، وهو في طريقه إلى قسنطينة، إلاّ أنّ أحمد باي رفض ذلك العرض، كما طلب منه كلوزيل الاعتراف بالسيادة الفرنسية مقابل بقائه بايا على قسنطينة إلاّ أن أحمد باي رفض العرض جملة وتفصيلا.

في شهر أوت 1830 تمكنت قوات أحمد باي من طرد الفرنسيين من عنابة، ودحض أحمد باي بذلك أقوال كلوزيل الذي قال بأنّ احتلال قسنطينة لا يعدو أن يكون مجرد نزهة.

جهّز كلوزيل في حملته على قسنطينة 8700 جندي، ووصلت أخباره إلى أحمد باي فاستعد له ونظم جيشه ووضع خطة عسكرية تقضي بمواجهة العدو ووضع الكمائن له عند أطراف المدينة، وكان النصر من نصيب أحمد باي.

إنّ هزيمة الجيش الفرنسي جعلت الإدارة الفرنسية تصر على احتلال إقليم قسنطينة خاصة بعد إمضاء معاهدة الهدنة (التافنة) بين السلطة الفرنسية والأمير عبد القادر، وبالفعل عاد الجيش الفرنسي إلى قسنطينة عام 1837.

ارتفع عدد الجيش الفرنسي في الحملة الثانية حيث وصل إلى 11000 جندي مدعم بقادة كبار من بينهم تريزيل، كومب، لامورسيار، وبقيادة دامرمون الذي قتل من طرف المقاومين القسنطينيين خلال الحملة.

حاول أحمد باي تقوية جيشه، وتمكن من كسب ثقة قبائل الحنانشة، والحراكتة التلاغمة، فرجيوة، أولاد عبد النور، ريغة ومجانة، قبائل الأوراس، سواحل سكيكدة، جيجل والقل...

لكن النصر هذه المرّة كان إلى جانب الفرنسيين الذين استفادوا من أخطائهم السابقة في حين تمسك أحمد باي بخطته السابقة التي كان قد خبرها الفرنسيون، فسهل عليهم احتلال قسنطينة، زيادة على ضعف الجيش الجزائري الذي جلّه من المتطوعة، زد على ذلك الافتقاد للإمكانيات والعتاد

العسكري، وعدم وصول مساعدات من الأستانة أو على الأقل من باي تونس، هذا الأخير الذي اتفق مع الفرنسيين مقابل تسليمه قسنطينة وعنابة.

انتهت معركة قسنطينة بدخول الجيش الفرنسي، ومع ذلك قرر أحمد باي مواصلة المقاومة ورفض كل النصائح التي تدعوه للاستسلام والتخاذل، ولم يقبل نصيحة الذين أشاروا عليه بمغادرة الجزائر، وفي هذا الشأن قال أحمد باي:« وفي الحين فكرت في محو الهزيمة، لأنّ الله لا يضيع كلّيا إلاّ الذين يهملون أنفسهم، لذلك استدعيت قادة القوم، فاجتمعوا حولي، وبعد أن استعرضت الموقف اقترحت عليهم تشكيل زمالة بجميع الذين خرجوا من المدينة، ثمَّ نقودها إلى مكان أمن في الجنوب، ونبقيها فيها تحت حماية مشاتنا، أما نحن فنرجع فورا إلى المدينة، ونتمركز في طريق عنابة بحيث نقطع حركة المرور، فنحن نعلم أنّ العدو خسر بالإضافة إلى كبير الجنرالات–دامرمون– عددا آخر من الضباط المعتبرين، وأنّ المؤن قد تكون نفذت، وعليه فإذا استطعنا أن نتمركز في طريق عنابة بحيث نقطع جميع الاتصالات بالمكان الذي يمكن أن يبعث النجدات، فإنه يكون لنا أمل كبير في تحقيق النصر، وتمّت المصادقة على مشروعي، وكاد يدخل في حيز التنفيذ عندما صاح بوعزيز بن قانة قائلا:" ماذا تريدون أن تفعلوا تبتعدون عن بلدكم، وتتوجهون نحو الشمال، إذن فأنتم لا تعلمون أنّ فرحات بن سعيد يقترب بسرعة من الزيبان، وفي الوقت الذي تحاولون فيه الدفاع عن قسنطينة، فإنكم تعرضون أنفسكم للطرد من منطقتكم، ولذلك يجب أن نسرع إلى الصحراء، ندخل عائلاتنا ومن اتبعنا إلى المدن، ثم نخرج متحدين ضد العدو الذي نخشى هجومه أكثر، فالفرنسيون لم يتقدموا، بينما فرحات بن سعيد يزحف علينا، ومن ثمة يجب أن نبدأ بمحاربته، وبعد ذلك نوحد قوانا، ونهاجم الفرنسيين".

لم استحسن هذه النصيحة، ولكنه لم يكن لي أهل– عدا أبنائي– أقرب من بوعزيز، فلم أكن أعتقد أنّه يستطيع أن يقترح عليّ ما من شأنه أن يضرَّني، وعيه انضممت إلى رأيه، ولو أنّ الله هداني في ذلك الوقت لفهمْت أنّه يريد جلبي إلى الصحراء ليأخذ أموالي عن آخرها، ولكن إذا حكم القدر على شخص بالهلاك، عُمِيَ بصره وبصيرته، وصار يعتقد الخير فيما يؤدي إلى الخراب، وأكرِّر ، لقد اتبعت رأي بوعزيز، وكان ذلك هو مصابي الأعظم».

واصل أحمد باي المقاومة حتى عام 1848، ظل يتنقل فيها بين الأوراس والصحراء إلى أن أنهكه المرض، عندها استسلم.

كان أحمد باي لا يفتقر للحنكة السياسية والقدرة القتالية، ولكنه افتقر للدعم من قبل الآخرين، ففي الوقت الذي انكب فيه لمواجهة الفرنسيين والقضاء عليهم وحماية إقليم قسنطينة وجد نفسه وسط

عصبة من الأعداء يتربصون به ساهموا في فشل مخططاته وعدم تمكنه من استرجاع قسنطينة، فبدل أن يواجه جبهة واحدة واجه عدّة جبهات وهي:

- جبهة مصطفى بومرزاق باي التيطري، الذي لقب نفسه باشا وطلب من أحمد باي الطاعة ودفع اللزمة، رفض أحمد باي العمل بذلك. غضب مصطفى وادعى عزله وعين مكانه إبراهيم الذي سبق له أن كان بايا على قسنطينة وعزله الداي حسين، فتحالف إبراهيم مع فرحات بن سعيد ضد أحمد باي الذي اشتبك معهما مرات كثيرة، وعلى الرغم من الانتصار كان حليفه، إلا أن قوته أصيبت بالهوان، وصارت الضرائب لا تدفع له إلا قهرا بفعل تحريض فرحات بن سعيد للأعراش والقبائل.
- جبهة الطامعين في منصبه وأمواله، وعلى رأسهم ابن خالته بوعزيز بن قانة. أما الأمر الذي أثار طمع هؤلاء، هو كرغلية أحمد باي، وافتقاره لقبيلة تحميه، كما هو شأن باقي زعماء حركات المقاومة.
- جبهة الخونة ومنهم فرحات بن سعيد الذي ألب عليه القبائل وتحالف مع الإدارة الفرنسية طمعا في نيل الولاية على كافة الصحراء الشرقية التي كانت امتدادا لإقليم قسنطينة الذي يحكمه أحمد باي.
- جبهة باي تونس الذي اتفق مع الإدارة الفرنسية سعيا لاقتطاع إقليم قسنطينة أوقف المعونات العثمانية التي كان ينتظرها أحمد باي والتي لو قدر وصولها إليه لكانت كفته هي الراجحة.

أخيرا، جبهة الأمير عبد القادر، فبالرغم من اتفاق كلا الطرفين على محاربة الإدارة الفرنسية، غير أنّ نظرة الأمير عبد القادر لأحمد باي لم تكن نظرة المعجب بالمجاهد والمناضل، بل نظرة ازدراء تجاه ممثل لسلطة تركية كانت المتسببة في احتلال الجزائر من قبل الفرنسيين. كما أنّ السلطة الفرنسية تمكنت من زرع الفتنة بين الطرفين خاصة بعد سلسلة الاتفاقيات التي جمعت بين الأمير عبد القادر والجنرالات الفرنسيين وأهمها اتفاق التافنة سنة 1837.